مقالات

رعايةُ أبنائنا الموهوبين في عالمنا العربي... إلى أين؟

د. آندي محمد حسن حجازي
دكتوراه علم النفس التربوي / تعلم ونمو ـ الجامعة الأردنية
ماجستير الموهبة والإبداع ـ جامعة البلقاء التطبيقية
andihijazi@yahoo.com
andymhh@gmail.com

كثيراً ما نسمع عن أسماءَ شهيرةٍ لعلماء في الغرب عاشوا في زمن قريب، أولئك الذين تحدّوا قدراتهم، واستثمروا إمكاناتِهم، وأوجدوا للعالَم عِلما نافعاً وإبداعاتٍ واكتشافاتٍ أصيلةً غيّرت وجه التاريخ ومعالم الحضارة البشرية، فإبداعاتهم وابتكاراتهم قلبت حياةَ البشر على غير عادتها، وأثرت بها إلى غير رجعةٍ، وقد كانوا بدايةً لتغيراتٍ كثيرةٍ متلاحقة، فمَن مِنّا لم يسمع بإسحق نيوتن أو ألبرت آينشتاين أو توماس أديسون أو جيمس واط أو مدام كوري أو غراهام بيل أو بتهوفن أوغاندي، ومَن منّا لم يسمع باليابان أو الصين أو ألمانيا أو الولايات المتحدة أو سنغافورة؟.. ولكن مَن مِنّا في المقابل سمع عن مبدعين عرب برزوا في زماننا هذا وعالمنا، وغيّروا معالم حاضرنا، وأضافوا أبعاداً جديدة للإنسانية، وأسهموا في التقدم العلميّ الهائل الذي نعيش فكانت لهم إضافات طالما انتظرتها البشرية؟ فأين مبدعونا العرب اليوم من هذا التطور والتسارع في التقنية وعصر العولمة؟!

إن منطق القوة والسيطرة والأفضلية اليوم هو مع الدول الأقوى فكرياً، ومن يمتلك زمام الأمور، بينما تبقى الدول المستهلكة لإبداعات الآخرين هي الحلقة الأضعف، وتظل تحت رحمة القوي يصنع بها ما يريد؛ فلماذا نبكي حزناً على احتراق بعض المحاصيل الزراعية كالقمح في روسيا أو غرقِه في الصين، أو خسارة الولايات المتحدة للأرز في عاصفة عاتية؟! أو نتحسّر ألماً على إغلاقِ مصانع للسيارات أو للأجهزة الإلكترونية في أميريكا أو كندا أو اليابان، أو لماذا نظلّ ننتظر ما يصلنا من وكالة الفضاء ناسا (NASA) حول أسرار الكون وأخبار الفضاء؟! ولماذا تسبق دول كالهند والصين والباكستان الدول العربية في صناعة الصواريخ والأقمار الصناعية وإطلاقها إلى الفضاء، ولم يُطلق قمر صناعي استكشافي واحدٌ من صنع عربي؟!.. فهل تنقص الدول العربية المليارات لكي تزرع المحاصيل التي بها قوت الشعب؟ أو لكي تنتج السيارات والإلكترونيات أو وكالات الفضاء؟ أو لكي تحل مشكلاتها كزيادة السكان مع قلة الموارد الطبيعية؟ أو مشكلة التغيرات المناخية الجديدة في العالم العربي اليوم.. القضية ليست اقتصادية بل عقلية فكرية بحتة.

والأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق والتي طالما بحثنا لها عن إجابة شافية؛ أين نحن ـ العالم العربي من هذا التطور المتسارع اليوم، وفي شتى المجالات كعلوم الطب والفلك والجيولوجيا والهندسة والاتصالات والفيزياء والرياضيات..؟ وكيف هي تربيتنا لأطفالنا

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 101 11/12/12 12:30:04 PM

الموهوبين؟ وما الذي ينقص أبناءنا الموهوبين العرب في زماننا هذا لنكون في مصافِّ الدول المتقدمة؟.. ما زلنا في العالم العربي ننتظر إبداعات تأتينا من الغرب من أفراد وجماعات تبدع في عالمها لنأخذها على طبق من ذهب بلا تضحيات أو جهد مكلف! فكم مرة جلس أديسون في معمله وجرّب مئات المرات ليصل إلى مراده، ويخترع مصباحاً لم ينر به عالَمه فحسب، بل أنار العالم كله، ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد، بل إنّ براءات اختراعاته تجاوزت المئات.

إنّ الاختلافات بين الأمم والشعوب في كمّ ونوع النتاجات الإبداعية اليوم كانت لأسباب من صنع الأفراد والمجتمعات والثقافات ذاتِها؛ كنقص الدافعية، وضعف السمات الشخصية (كالمثابرة وتحمل الغموض وحب الاكتشاف)، وقلّة الكشف عن الأطفال الموهوبين ورعايتهم، وغياب التأهيل الكافي والتربية الإبداعية المتميزة لهم، وكذلك لضعف الإنفاق العربي على دعم البحث العلمي، حيث تشير إحصاءات منظمة اليونسكو (منظمة التربية والثقافة والعلوم) لعام 2004 م في هذا الشأن إلى أن الدول العربية مجتمعة خصصت للبحث العلمي ما يعادل 1.7 مليار دولار فقط، وهو ما يعادل حجم إنفاق جامعة واحدة في الولايات المتحدة! ويُشكّل ما نسبته 0.3 % من الناتج القومي العربي الإجمالي، في حين نلاحظ أن الإنفاق على البحث العلمي في «إسرائيل» في عام 2004 م وصلت نسبته إلى 4.7 % من ناتجها القومي الإجمالي، وهي أعلى نسبة مسجّلة في العالم، حيث في الولايات المتحدة بلغ نسبة الإنفاق على البحث العلمي 2.6 % من حجم إجمالي ناتجها القومي، وفي اليابان 3.10 % وفنلدا 3.07 %. وقد يكون في التجربة الكورية مثال يُحتذى، ففي بداية الستينات لم يكن إنفاق كوريا على البحث العلمي والتطوير يتجاوز 0.2 % من الناتج المحلي الإجمالي، وبعد أربعين عاماً حققت كوريا الاكتفاء الذاتي في جميع صناعاتها، وبلغ في عام 2004 معدل الإنفاق العلمي والتقني لكوريا 2.6 % من إجمالي الناتج المحلي.

إن الكثير من أطفالنا الموهوبين العرب اليوم فقدوا البيئة المُحفِّزة والمُدرَّبة والمثيرة للإبداع ومازالوا يفتقدونها.. ومن الأدلة المؤكدة على ذلك هي هجرة الأدمغة العربية إلى الدول المتقدمة كالولايات المتحدة وكندا، حيث تشير إحصاءات مركز البحوث في قسم الهجرة والعمل والعمالة في جامعة الدول العربية لعام 2008 إلى ما يلي:

100 ألف طبيب ومهندس وعالم	يهاجرون سنوياً من الأردن والعراق وسوريا ولبنان ومصر وتونس والجزائر والمغرب العربي إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا
15 ألف طبيب عربي	قد هاجروا إلى خارج بلدانهم من عام 1998 – 2000

وكثيراً ما نجد أنّ هؤلاء المهاجرين العرب ومن مستويات فنية وعلمية ومهنية مختلفة يبدعون خارج بلدانهم، ويحققون براءات اختراع مسجلة، بما يجدونه من بيئة محفزة وسياقات فكرية داعمة، ونجد كذلك أن طلبتنا الموهوبين الذين وجدوا الرعاية والتربية الإبداعية اللازمة في بلدانهم كطلبة مدرسة اليوبيل للموهوبين والمتفوقين في عمّان - على سبيل المثال - والذين انتقلوا لاستكمال دراستهم في الخارج نجدهم - وفي أحيان كثيرة - يتفوقون على أبناء الدولة الأصليّين، ويبدعون أكثر منهم، مما يؤكّد دَوْر الرعاية والبيئة الداعمة معنوياً ومعرفياً ومادياً في نمو القدرات وتجسيد الإبداعات، بينما نجد أنّ استمرار

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 102 11/12/12 12:30:05 PM

القصـور في التربيـة الإبداعية للموهوبين والمتفوقين وفي الكشـف عنهم يعمّق الفجوة بين المجتمعات النامية والمجتمعات المتقدمة.

وفي إطار التصوّر السابق؛ أشار عالم النفس لييف فيجيوتسكي في نظريته الاجتماعية الثقافية – التاريخية للنمو العقلي للطفل؛ إلى أن ثقافة المجتمع والتعلم والنمو في السياقات الاجتماعية الراقية هو ما ينقل الأفراد من مستويات التفكير الأساسية إلى مستويات التفكير العليـا، وأكّد أن المجتمعات المتقدمة يختلـف تفكير أبنائها عن المجتمعات النامية أو البدائية بما تقدمه لهم الثقافة والسـياقات الاجتماعية من مفاهيـم ومتغيرات ومواقف تعلّمية، وأن التفكيـر المجـرد هو نتاج التطور التاريخي-الاجتماعي ذي المسـتوى المتقدم نسـبيّاً، ويرى فيجوتسـكي أننا حتـى نفهم الطفل فلابد من دراسـة الثقافة التي ينمو بهـا الطفل، حيث إنّ نمو الأطفال طبقاً لنضجهم الداخلي لا يذهب بهم بعيداً في التفكير، فلكي تنمو عقول الأطفال بالكامـل يحتاج الأطفال إلى الأدوات النفسـية التـي تزودهم بها الثقافـة كالمفاهيم العلمية واللغـة والأدوات النفسـية، وأكّد لـو أن فرداً يُغيّـر أدوات التفكير المتاحة للطفـل فإنّ عقله سوف يكون له بنية مختلفة جذرياً (كرين، 1996، ص259).

وممّا يؤكد الحقيقة السابقة، وهي دور الثقافة والمجتمعات والسياق الاجتماعي في التعلم والنمـو للموهـوب؛ هو التعمّق في فهم مفاهيم ذات علاقة بالموضـوع، فنجد مثلاً أن الموهبة (Giftedness) وكمـا تمّ تعريفها مـن قبل مكتب التربية والتعليم الأمريكي عام 1981 هي «قدرة فطرية واستعداد موروث في مجال أو أكثر من مجالات الاستعداد الأكاديمي أو العقلي أو الإبداعـي أو القيـادي أو الفني او الرياضي، وأنّ هذه القـدرة الموروثة تحتاج إلى خدمات ونشاطات متميزة لا تقدمها المدرسة العادية من أجل التطوير لهذه الاستعدادات والقابليات والإمكانات»، جروان (2004، ص 398).

ونجـد أن الإبـداع (Creativity)، وكمـا عرفه سـتيرنبيرغ (Sternberg, 2002) هو عملية نشطة تنطوي على تقديم شيء جديد يتصف بالجدة والفائدة. ورأى سولسو (Solso، 2001) أنـه نشـاط إدراكـي ينتج عنه طريقـة جديدة، أو غيـر مألوفة في رؤية المشـكلة أو إيجـاد حل لمشـكلة مـا. وعرّفـه جـروان (2004، ص74) على أنـه «مزيج مـن القدرات والاسـتعدادات والخصائص الشـخصية التي إذا ما وجدت في بيئة مناسبة يمكن أن ترقى بالعمليات العقلية لتؤدي إلى نتاجات أصيلة جديدة، سـواء بالنسـبة للفرد أو المؤسسة أو المجتمع، أو العالم كله في أحد ميادين الحياة الإنسانية».

وبنظـرة متفحصـة في التعريفات السـابقة نـرى أن الموهبة والإبداع هي قـدرات كامنة تحتـاج إلى الكشـف والنماء لكـي تنمو وتثمر، فعندما تتوافر سـمات شـخصية لدى الفرد كالطلاقة والمرونة والحساسية والتفصيلات مع الخصائص المعرفية العالية لديه (كالذكاء المرتفع، والدافعية العالية، وقوة البيان، والخيال الواسع، والمهارة في اتخاذ القرار والتفكير المنطقي، والاسـتقلالية في إصدار الأحكام، والقدرة على حل المشـكلات بطرق فريدة)؛ فإنه لابـد للعملية الإبداعية من مناخ ما لكي تثمر، وتؤتي أكلهـا، وتؤدي إلى النتاجات الفريدة، وهذا المناخ هو ما نفتقده اليوم في مجتمعنا العربي، حيث البيئة المحفزة للإبداع هي المؤدية إلى تنمية السـمات الشـخصية المميزة للأفراد والخصائص المعرفية التطورية والإمكانات التفكيريـة العاليـة التي يمكن توظيفها في واقع الحياة؛ ولذلـك أكّد مكتب التربية الأمريكي

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 103 11/12/12 12:30:05 PM

في تعريفه السابق للموهبة أهمية تقديم الخدمات والبرامج والرعاية الخاصة للموهوبين لتنمية قدراتهم، ومن ثم الاستفادة منها في تحقيق الرفاه والتقدم لأبناء المجتمع.

وهذا الاهتمام بتقديم الخدمات والرعاية للموهوبين والمتفوقين هو من أهم ما ميّز مجتمعات الدول المتقدمة ومؤسساتهم التعليمية؛ حيث تُؤْمِن تلك المجتمعات بأهمية توفير أسس الإبداع وترسيخ مبادئه مع فئة الموهوبين (كالأمن والسلامة والحرية والعدالة والديمقراطية، والتجريب والاكتشاف والتأهيل) لكي تتطور إمكاناتهم وتتفجّر قدراتهم الإبداعية، فهم يؤمنون بأنّ أبناءهم الموهوبين هم الكنز الحقيقيّ والثروة الفعلية التي يعوّلون عليها في رقيّ مجتمعاتهم، وفي سباقها المحموم نحو التطور والمجد، وهم الفئة الأقدر على تحمّل مسؤولية بلدانهم وتقليل اعتمادها على الآخر في مقابل زيادة استقلاليتها وإمكاناتها، فهم يعتقدون يقيناً بأنّ الأمة الأكثر فاعلية والأكثر قدرة على البقاء والاستمرارية والمواجهة هي الأمة الأكثر تطوراً وإنتاجاً وإبداعاً، وخاصة في الجوانب التكنولوجية، وفي حل المشكلات المجتمعية والدولية، وهم يُسخّرون كل إمكاناتهم لذلك. بينما يُنظر إلى قضية دعم الموهوبين في عالمنا العربي كقضية ثانوية غير مرتبطة بالأمن القومي والتقدم المجتمعي.

وممّا يؤيّد المعتقدات السابقة للدول المتقدمة؛ أن تلك الدول وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية قد تنبّهت إلى هذه الثروة الحقيقية، ومنذ الخمسينات من القرن الماضي، حيث تشير الأدبيات في الموضوع كمثل ما ذكره الباحثون ديفيز ورم وسيجل (Davis, Rimm & Siegle, 2010) في كتابهم «تعليم الموهوبين والمتفوقين» إلى أنّ المجتمع الأمريكي أصيب بالدهشة والذهول عندما أطلق الاتحاد السوفييتي القمر الصناعيّ الأول المسمّى سبوتنيك (Sputnik) في عام 1957 في أوج سني الحرب الباردة التي سادت بين البلدين عقب الحرب العالمية، فسيطر على المجتمع الأمريكي شعور عام بالهزيمة، هزيمة التقنية أمام عقول السوفيتيين، وبدأت التقارير حول الموضوع، فبرز تقرير سابق في عام 1954 للمفوض العام الأمريكي للموارد البشرية والتدريب المتقدم يظهر أن الولايات المتحدة لم تنجح في تحضير الرجال والإناث في مجالات العلوم والهندسة والصحة والتعلم، وأن إحصاءاته تشير إلى أن العجز والقصور سوف يستمر ما لم يُبدأ بتعليم الموهوبين والمتفوقين بتعليم محترف. وأوضح تقرير مكتب التربية والتعليم في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1958 أن الطالب الروسي المتخرّج من الثانوية يكون قد أنهى (10 سنوات من الرياضيات، و5 سنوات فيزياء، و4 سنوات كيمياء، و5 سنوات بيولوجيا، وسنة من علم الفضاء والفلك، و5 سنوات في تعلم لغات مختلفة).

ممّا جعل الساسة وصناع القرار يحمّلون مسؤولية هذا التخلف الفكري للتربويين والمؤسسات التربوية، فارتفعت الصيحات تعلن نذير الخطر، وتهاجم سياسات التربية وواضعيها، وآنذاك وجهت الجهود لخوض معركة جديدة وسباق تسلح من نوع جديد، وهو التسلّح بأسلحة العلم، وتأهيل التفكير، وتباعاً عقدت المؤتمرات التربوية وتعاظمت الاهتمامات برعاية الموهوبين، بل وخصّصت المخصصات الهائلة من ميزانية الدولة لمعالجة الخلل ونقص الرعاية للموهوبين والمتفوقين من أبنائهم، ومن أهم تلك المؤتمرات التي عقدت آنذاك لإثارة قضية الاهتمام بالموهوبين، مؤتمر وودشول (Woodshall) في الولايات

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 104 11/12/12 12:30:06 PM

المتحـدة الذي أقيم في جامعة هارفارد عـام 1958، والذي تعالت به النداءات إلى متى يُترك أبناؤنـا الموهوبـون بلا رعاية وتنميـة لطاقاتهم الإبداعية؟.. ونتج عن هـذا المؤتمر تطوير مناهـج العلـوم كالفيزياء والبيولوجيـا وعلوم الفلـك والرياضيات في الولايـات المتحدة، والاتفاق على عقد المؤتمرات السـنوية لرعاية الموهوبين والمتفوقين، وإنشاء مدارس لرعاية الموهوبين وتقـديم الخدمات لهم. كما واعتُمِدَت معايير جديـدة للقبول في جامعة هارفارد، والتـي أصبحت لا تضم فـي جنباتها إلا الموهوبـين والمتفوقين والمبدعـين والكثير من حملة جائـزة نوبل بـين طلبتها ومدرِّسـيها، وكأنّ الكرة قـد تحركت بالفعل فـي الملعب الأمريكي آنـذاك.. وخلال أقل من (5) سـنوات كان لحـاق الولايات المتحدة بالاتحاد السـوفييتي، بل والتفوق عليه في مجال غزو الفضاء، حيث اسـتطاع الأمريكيون الوصول إلى القمر في عام 1962، بل وإطلاق العديد من الأقمار الصناعية والصواريخ الأمريكية فيما بعد (Davis, Rimm & Siegle, 2010).

وتباعـاً، وفي السـبعينيات والثمانينيات من القـرن المنصرم، أنشـأت الولايات المتحدة العشـرات من المـدارس والمراكـز لتقديم الرعايـة والخدمـات اللازمة للموهوبـين، وأقيمت برامـج كثيـرة في المـدارس لرعايتهم وتطويـر إمكاناتهـم، وتمّ تكثيف المناهـج الأكاديمية للطلبـة اللامعين من أجـل الوصول بهم لأقصى طاقاتهم، وتمّ تعليـم اللغات الأجنبية، وتمّ دعم المدرسـين والإداريين والحكومـات الفيدرالية لكي يصبحوا أكثـر التزاماً مع هذه الفئة، وتمّ تعديـل أنظمـة المدارس، وتشـكيل لجان في كل مدرسـة لتطوير المـواد العلمية المقدمة لهؤلاء الطلبة، وبرز تحسـن فـي درجة الوعي المجتمعـي حول معايير التميـز والابتعاث، وأصبحـت هنـاك برامج تسـريع مشـتركة بين المـدارس والجامعـات من أجل الكشـف عن الموهوبـين والمتفوقـين في مرحلة ما قبل الرشـد لإلحاقهـم في الجامعـات وتطوير قدراتهم لأقصى طاقاتها وإبداعاتها، كما طُرح في العديد من الجامعات الأمريكية تخصصات خاصة بتأهيـل معلمي الموهوبين والقائمين على رعايتهم من أجل تقديم خدمات متميّزة لتلك الفئة، واليـوم، وفـي عقد الألفية الثالثة أصبح فـي الولايات المتحدة المئات بـل الآلاف من المدارس والمراكز والبرامج والخدمات لرعاية الموهوبين والمتفوقين، وتعدّدت الجامعات التي تدرس تخصص الموهبة والإبداع وبمسـميات مختلفة لتأهيل المعلمين والقائمين على رعايتهم، وما زالـت المخصصات المالية مـن إدارة الولايات المتحدة والحكومات الفيدرالية مسـتمرة لدعم كل مـا يلزم لتأهيل هـذه الفئة، ودعم إنتاجهـا وأبحاثها وإبداعاتهـا (Davis, Rimm & Siegle, 2010).

وإن كانـت الولايات المتحـدة الأمريكية هي أول مـن تنبّهت لتلك الثـروة التي لا تنضب، وتفاعلت مع تلك الثروة لاستخراجها وتنميتها، فإنّ دولاً أخرى قد قررت عدم الوقوف موقف المشـاهد للمسـرح والأحداث الدائرة به، بل المشـاركة مع الولايات المتحدة الأمريكية في هذا السباق العلمي الكبير، فدخلت اليابان والصين وكوريا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا وسـنغافورة وكنـدا والبرازيـل.. فـي مضمار السـباق، وعزمت علـى المشـاركة والتحدي وإسـراع الخطى، وهي اليوم في منافسـات نلمس آثارها جلياً، بل أُطلق على بعضها الدول العظمى، فنرى التطور التقني والإلكتروني الهائل في اليابان والصين وألمانيا، ونرى التقدم الصناعي البارز في الصين وفرنسـا وألمانيا وسويسـرا والبرازيل، ونجد للتطور في مجال أبحـاث الفضاء أثراً في الهند والصـين وإيران، وفي المجال التعليمي والتقني تميّزاً في كندا،

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 105 11/12/12 12:30:07 PM

ولكنّ السؤال المثير في هذه القضية: أين الدول العربية من هذا السباق؟ ولماذا لم تشارك أية دولة عربية في هذا التسارع والسباق الفكري والتقني المحموم؟!

إنّ الإشكالية الأساسية في هذا الطرح؛ تكمن في أن الجهود العربية في مجال رعاية الموهوبين متناثرة في العالم العربي، وقليلة وبطيئة في سرعة إنجازها، ولم تصل إلى إحداث الأثر المطلوب بعد، وتحتاج إلى بذل المزيد من الاهتمام والمتابعة والمثابرة في تحقيق النتاجات ووضع الخطط الإستراتيجية، وتصميم البرامج الإثرائية والخدمية لتلك الفئة، وأنّ المسؤولين وصُنّاع القرار في الدول العربية لم يصلوا بعد إلى القناعات الكافية حول أهمية تلك الفئة من المجتمع وأهمية رعايتها، ودعم المؤسسات التربوية القائمة عليها، حيث أقيمت في بداية التسعينيات من القرن الماضي - وبجهود فردية في أحيان كثيرة - بعض المراكز والمدارس القليلة لرعاية الموهوبين في بعض الدول العربية لا جميعها، والتي كان لها دور فاعل في تطوير تلك القدرات، والتي مازلنا بحاجة إلى المزيد منها، وأخص بالذكر الدور الريادي للأردن في إنشاء «المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين» عام 1996، والذي مقره في عمّان، ويضم في عضويته معظم الدول العربية المهتمة برعاية الموهوبين، وقد عمل على عقد العديد من ورش العمل والمؤتمرات العربية المتتالية لرعاية الموهوبة والإبداع، والتعريف بهما وبأهميتهما، وعقد مؤتمره الأول في جامعة الإمارات عام 1998، ومؤتمره الأخير في عمّان في تموز 2010، وكذلك إنشاء «مركز التميز التربوي» في عمّان، والذي يعقد العديد من ورش العمل والدورات للتعريف بالموهبة وأساليب الكشف عن الموهوبين، وأنشئت في عمّان «مدرسة اليوبيل لتعليم الموهوبين والمتفوقين» كمدرسة ريادية عام 1993، و تمّ إنشاء العديد من «المراكز الريادية الإثرائية» و«مدارس الملك عبد الله للتميّز» في العديد من محافظات الأردن وذلك لتعزيز الموهبة والإبداع.

وكذلك أشيد بدور المملكة العربية السعودية في اهتمامها المتميّز في مجال رعاية الموهوبين ودعم القائمين عليها، حيث سياسة المملكة أكّدت اكتشاف الموهوبين ورعايتهم، فتمّ إنشاء «مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله للموهبة والإبداع» عام 1999 / 2000 في مدينة الرياض، وتمّ إنشاء العديد من مدارس ومراكز رعاية الموهوبين ونشرها على مستوى المملكة «كالمدارس المطوّرة»، و«مدرسة الفهد»، و«مراكز رعاية الموهوبين» في المدينة المنورة وفي مكة المكرمة والرياض والطائف وجدة وعرعر، وكذلك «مراكز رعاية الموهوبات» في الرياض وجدة ونجران والإحساء وحائل والشرقية وحفر الباطن، وكذلك تمّ إعداد بعض البرامج الإثرائية لرعاية الموهوبين والموهوبات وتطبيقها في مناطق مختلفة من المملكة العربية السعودية، وتقوم وزارة التربية والتعليم السعودية بابتعاث العديد من المعلمين والتربويين إلى جامعة الخليج في البحرين، وجامعة البلقاء التطبيقية في الأردن، وللولايات المتحدة لتأهيلهم في الموهبة والإبداع. ولابد من الإشادة في هذا السياق؛ بجهود جامعة فهد للبترول والمعادن في تشجيعها للابتكار والإبداع والاكتشاف والبحث العلمي، حيث جُل أساتذتها هم ممن يمتلكون براءات اختراع مسجلة، ولديهم الكثير من الأبحاث والمنشورات العلمية، وهم يشجعون طلبتهم على الإبداع وما زالت إبداعاتهم واكتشافاتهم مستمرة.

وأنشئ في ليبيا «مركز الفاتح للموهوبين» في بنغازي عام 1994، مع التركيز على

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 106 11/12/12 12:30:07 PM

تدريس العلوم الهندسية والتطبيقية في جامعة الفاتح، وأقيم حديثاً في حزيران 2010 «المؤتمر الوطني الأول لرعاية الموهوبين والمتفوقين» في ليبيا. كما وأُنشئت «مدرسة عين شمس للمتفوقين الأوائل» في القاهرة عام 1960، و«مراكز لرعاية الفائقين في المرحلة المتوسطة» في العديد من المناطق التعليمية في مصر عام 1988. كما أقيمت حديثاً «مدرسة الموهبة والتميز» في السودان، وأنشئت «مدارس المتفوقين» في معظم محافظات سوريا، والتي بدأ إنشاؤها عام 1998، وهي للمرحلة الإعدادية والثانوية، وكذلك أنشئت «مدرسة الموهوبين» في العراق عام 1998، وتم إنشاء قسم في وزارة التربية والتعليم العراقية لرعاية الموهوبين والمتفوقين، وكذلك في بعض وزارات التربية والتعليم العربية.

كما اهتمت دولة الكويت بإقامة العديد من المؤتمرات والندوات وورش العمل والصفوف الخاصة والبرامج الإثرائية لرعاية الموهوبين، وأقيم «المهرجان العلمي والثقافي الأول للإبداع والتفوق» في الكويت عام 2000، واهتمت «الجمعية الكويتية لتقدّم الطفولة العربية» بنشر العديد من المنشورات والأبحاث والموضوعات التي تدعم الموهبة والإبداع للطفل العربي. وأنشئ في دولة قطر «المركز القطري لرعاية الموهوبين والمتفوقين». ومن جانب آخر، ترعى دولة الإمارات العربية المتحدة العديد من الجوائز التربوية لتشجيع الإبداع والتفوق والتميز «كجائزة خليفة التربوية»، و«جائزة حمدان للأداء التعليمي المتميز»، و«جائزة الشارقة للتفوق والتميز التربوي»، و«جائزة رأس الخيمة للإبداع والتميز»، وكذلك جوائز عديدة في الأداء الحكومي المتميز.

لقد تنامى الاهتمام بقضايا رعاية الموهوبين والمتفوقين في العالم العربي خلال العقدين الماضيين بشكل واضح، ولكننا ما زلنا نطمح إلى المزيد من الجهود في الجوانب الآتية:

أولاً - وضع الخطط الإستراتيجية التنموية للرعاية والمتابعة.

ثانياً - توحيد مفهوم الموهبة والتفوق والإبداع في عالمنا العربي.

ثالثاً - التوصل إلى معايير وأساليب وأدوات موحدة عربيّاً في الكشف عن الموهوبين والمبدعين في عالمنا العربي.

رابعاً - تصميم برامج خاصة عربية نموذجية لرعاية الموهوبين والمتفوقين والمبدعين.

خامساً - تصميم وإعداد مناهج عربية حديثة مشتركة أو غير مشتركة لتربية وتعليم الموهوبين والمتفوقين والمبدعين في العالم العربي، وتكثيف مناهج العلوم بفروعها المختلفة للموهوبين وكذلك علوم الحاسوب والفلك، والاهتمام بتعليم الموهوبين لغات متعددة.

سادساً - إنشاء مراكز ومدارس لرعاية الموهوبين والمتفوقين في كل البلدان العربية، وفي جميع المدن العربية.

سابعاً - تأهيل الكوادر العاملة مع فئات الموهوبين بشكل كافٍ، وبأعداد كبيرة من معلمين وإداريين ومديري مدارس ومرشدين تربويين، واختصاصيين اجتماعيين وغيرهم.

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 107 11/12/12 12:30:07 PM

ثامناً- العمل على طرح تخصصات جامعية جديدة في الجامعات العربية لتأهيل العاملين مع الموهوبين.

تاسعاً- إيجاد أساليب وأدوات تقويم موحّدة وجادة لتقويم تلك البرامج والمناهج الخاصة برعاية الموهوبين والمتفوقين والمبدعين.

عاشراً- تحفيز الإبداعات والابتكارات والمنجزات العلمية والحضارية المتميزة لأبنائنا العرب على المستوى المحلي والدولي والعالمي بشتى الطرق.

وفي هذا الصدد؛ وفي ظل مناقشة القضية المطروحة فإنني أرى أنه ولتحقيق النتاجات والأهداف والجهود المرجوة السابقة لابد من توافر النقاط الثماني الآتية:

1) ترسيخ مبادئ السياسات التربوية في معظم البلدان العربية، والتي تتجذّر في (المشاركة، والعدالة، والديمقراطية، والاحترام، وحرية التعبير)، وتشجيع ممارستها مع الموهوبين والمبدعين خاصةً من أجل تحقيق الرفاهية للأفراد، ومن تلك المبادئ ما أشار إليه جروان (2004: 303) وهي:

- تقبّل التنوع والاختلاف في الأفكار والاتجاهات واحترامها.
- تقبّل النقد البنّاء واحترام الرأي الآخر.
- ضمان حرية التعبير والمشاركة.
- العمل بروح الفريق وبمشاركة جميع الأطراف.
- المساواة بين الجميع.

وبناءً عليه فإنّ توافر وممارسة مثل هذه المبادئ في تعليم الموهوبين ورعايتهم لابد أن يُسهم في الوصول إلى الإبداع الحقيقي والجاد الذي نريد، حيث لا يمكن للإبداع الحقيقي أن يتطور بعيداً عن التحدي والحرية والعدالة والتنوع والتفهم والتقبّل والاحترام، ممارَسين بشكل فعال على أرض الواقع، والذي ينتج عقولاً نيرةً قادرة على مواجهة الأزمات وحل المشكلات وإزالة التناقضات وإثراء البيئات في زمن يزداد عولمةً يوماً بعد يوم.

وهذا الطرح يتماشى مع رؤية اليونسكو (UNESCO) التي طرحتها في المنتدى العالمي للتنمية المنعقد في داكار في إبريل عام2000، والذي تمخض عنه الأهداف الألفية للأمم المتحدة، والتي من بينها يتضح الهدف الأسمى من التربية والتعليم في الألفية الثالثة، والمتمثل بـ: «أن التعليم حق للجميع، وأن التعليم أداة مهمة لتحقيق تنمية الأفراد والمجتمعات، وينبغي استخدامها لتعزيز التسامح والعدالة والمساواة والتفاهم والمنفعة للأجيال الحاضرة والمقبلة، وأن على التعليم أن يسهم في تحقيق المزيد من الديمقراطية والتقدّم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمجتمعات مع تنمية طاقات الفرد الكامنة تمهيداً للمشاركة الإيجابية في تحديد هذه الأهداف والسعي لتحقيقها، وأن على التعليم أن يقود إلى التعرف على الجوانب العلمية والحضارية المعاصرة، بحيث يتفهم الأفراد بيئاتهم ويقدرون على التأثير فيها باتخاذ موقف نقدي من المتضمنات الاجتماعية والسياسية والإيكولوجية السائدة، مع القدرة على التغيير فيها».

2) زيادة درجة الوعي ونشر ثقافة الموهبة والإبداع، وأهمية رعاية فئة الموهوبين

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 108 11/12/12 12:30:08 PM

والمتفوقين، وذلك على مستوى المجتمعات العربية جميعها، وتسخير وسائل الإعلام العربية – وبشكل مكثف– في هذا الجانب من صحفٍ ومجلات ومحطات فضائية وإذاعيةٍ ومواقعَ إلكترونية؛ لما لها من دور فاعل في التثقيف والتوعية والتأثير على النفوس والعقول، وإيلاء تلك القضية أهمية قصوى حتى تصبح ثقافة المجتمع العربي هي ثقافة الإبداع ورعاية الموهوبين ودعم القائمين عليها، فلا يمكن أن نتعامل مع جميع المتغيرات بنجاح في ظل غياب الموارد البشرية من العناصر المبدعة والموهوبة، أو في ظل هجرة العقول العربية إلى الدول الأجنبية، فما تحتاجه هذه الفئة المميزة من المجتمع لكي تبدع هو الدعم المعنوي والمجتمعيّ والثقافي.

3) الاتفاق على قيادة تربوية قادرة على قيادة عملية رعاية الموهوبين والمتفوقين والمبدعين في عالمنا العربي، والإشراف عليها، ودعمها، ويكون من أهدافها الوصول إلى توحيد المفاهيم والمعايير والأدوات المتعلقة بالموهبة، والكشف عن الموهوبين وتدريبهم وتقويم برامجهم.

4) ضرورة تولّي الجهات الرسمية كوزارات التربية والتعليم في الدول العربية مسؤوليتها في رعاية الموهوبين من خلال إنشاء وحدات أو أقسام لرعاية الموهوبين والمتفوقين في بلدانهم، وتفعيل القائم منها، بحيث تقوم على وضع الخطط التنموية والإستراتيجية الملائمة، ومن ثمّ العمل على متابعة تحققها ودعمها، مع تصميم مناهج وبرامج إثرائية مناسبة ودعم تطبيقها، مع تعزيز النواتج الإبداعية للطلبة، حيث رعاية هذه الفئة هي مسؤولية وطنية، وتحتاج إلى تكاتف الجهود المعنية.

5) تخصيص المخصصات الكافية من ميزانية الدولة ومن الإنفاق الدولي العربي لرعاية الموهوبين والمتفوقين، ودعمهم في جميع دولنا العربية لنشر ثقافة الموهبة والإبداع ورعاية الموهوبين، كإنشاء المراكز والمدارس والمؤسسات التربوية المختلفة الخاصة برعايتهم، وإعداد المناهج والبرامج المُطوَّرة لمواهبهم، وإنشاء المحطّات الفضائية الخاصة برعايتهم ودعمهم، وتصميم المواقع الإلكترونية والمسابقات والجوائز التشجيعية لهذه الفئة، وإقامة العديد من مراكز الأبحاث المتعلقة بالموهوبة والإبداع، ولابد من الاهتمام بإنشاء مدارس لرعاية الموهوبين والمتفوقين وليس في كل بلد عربي فحسب، بل في كل مدينةٍ عربية، حيث نسبة الموهوبين في المجتمعات تتوزع ضمن المنحنيات الطبيعية، وتتراوح تلك النسبة بين 5 ـ 20 % بحسب نوع الموهبة المراد الاهتمام بها.

6) تخصيص المخصصات الكافية من ميزانية الدولة ومن الإنفاق الدولي العربي ومن ميزانية الجامعات العربية على البحث العلمي، ورفع ميزانياتها فيما يخص هذا البند، حيث لابد من إعادة النظر في أهمية البحث العلمي والتقدم العلمي والتكنولوجي في رُقيِّ الشعوب، والمساهمة في حل مشكلاتها، حيث لا يمكن للموهوبين من الأطباء والمهندسين والصيادلة.. أن يبدعوا في كثير من الأحيان ما لم تتوافر مراكز الأبحاث والمختبرات والمعامل والأدوات وفرق البحث وتكاتف الجهود.

7) تهيئة البيئة المحفّزة والمناخ المشجع على الإبداع في كل من الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع. والحديث في هذه القضية يستفيض ويتسع، ولكننا نوجزه بنقاط محددة؛ حيث

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 109 11/12/12 12:30:08 PM

البيئة المشجعة على الإبداع هي المساهمة في النمو التكاملي للطفل، والمفجرة للطاقات البشرية والإبداعية، والمساهمة في بناء وتطوير الشخصية المبدعة والقادرة على العطاء، ولذلك لابد من أن يتوافر في تلك البيئة ما اقترحه كين كولمان (Ken Colman, 2001) والوارد في نوفل (2009):

(الاحترام لذات الطفل، والأمن وعدم التهديد، التفهّم والتقبّل، التخطيط الجيد، المرونة الذهنية في استيعاب الأفكار، وتشجيع حرية الرأي، وبناء الثقة بالذات، وتشجيع المثابرة والمواظبة).

وإضافة إلى ما سبق؛ فإنني أرى أنه لإيجاد وتعزيز وتطوير البيئة الداعمة لنمو الموهبة والتفوق والإبداع لابد من توافر ما يلي:

- تشجيع التلقائية والعفوية؛ لأنها أسس الإبداع.
- تشجيع الخيال العلمي والابتكارات، فجميع الابتكارات العلمية بدأت من فكرة متخيّلة.
- التدريب على التجريب والاكتشاف والسماح به.
- تشجيع التخلي عن العادات الروتينية، وتخطي عقبات الإبداع الشخصية والمجتمَعية.
- تنويع إستراتيجيات التعليم والتفكير وإثارة الدافعية.
- توسيع الحوار والمناقشة مع الموهوب لما تمتاز به هذه الفئة من التميز في الجانب الفكري والعقلي والمعرفي.
- الاهتمام بتنمية الذكاء العاطفي والذكاء الاجتماعي للموهوب.
- التكامل بين جوانب النمو المختلفة للموهوب (الجانب البيولوجي، والسيكولوجي، والانفعالي الاجتماعي، والمعرفي العقلي).
- الاهتمام بتعليم لغات متعددة للموهوبين وبرامج متنوعة في العلوم والرياضيات والفلك.
- توفير الدعم المادي اللازم للمبدع كتوفير المكان والأدوات والوسائل اللازمة.
- تقديم الدعم الأسري للموهوب بجميع أشكاله كالتفهم والمحبة والتشجيع والدعم المادي والفني.

8) ضرورة تبنّي أساليب متقدّمة في تربية تفكير الموهوبين والمتفوقين في المدارس والجامعات ومؤسسات التربية؛ كالتفكير الناقد، والتفكير الإبداعي، والتفكير الاستقصائي، والتفكير التباعدي، والتفكير العلمي، والتفكير الإيجابي، وتفكير حل المشكلات، والتفكير التخيلي، والتفكير الارتباطي، والتفكير الافتراضي، والتفكير المنطقي.. لما لها من قدرة على تفتيح الذهن والطاقات الإبداعية.

ويرى طافش (2004) فيما يتعلق بهذه القضية أنّ تنمية مهارات التفكير تُعدّ من أبرز الأهداف التي تسعى المؤسسات التربوية إلى تحقيقها، فهي تسخر كل طاقاتها لكي يصبح طلبتها قادرين على التفاعل الواعي مع ظروف الحياة المتغيرة التي تحيط بهم، وقادرين على حل المشكلات الواقعية، غير أن كثيراً من المؤسسات التربوية وبالأخص المدارس، وفيما يسمّى ببلدان العالم الثالث، لا تتوقف كثيراً عند هذه الحقيقة الناصعة، بل تقصر جُلّ

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 110 11/12/12 12:30:09 PM

اهتمامها على تلقين المتعلمين كمّاً من المعارف التي لا يقوى الطالب في كثير من الأحيان على حفظها، ولا توظيفها في واقع حياته، ولا يلبث أن ينساها بعد أن يجتاز اختبارات وضعت لتقيس كمية حفظه للمعلومات، وصولاً إلى هدف فرضته عليه ثقافته، وهو الحصول على الشهادة لا توظيف العلم في واقع الحياة.

ويؤكد طافش (2004) أنّ تنمية القدرة على التفكير هو حق مشروع لكل طالب، وأنّ هذه التنمية تتطلّب معلمين مؤهلين تأهيلاً نظرياً وعملياً، خاصة فيما يتعلق برعاية الموهوبين والمبدعين، ويتطلّب مناهج دراسية مؤثرة ووسائل تعليمية ملائمة لكل مرحلة عمرية، ويتطلّب كذلك أسرة مثقّفة واعية متفهّمة لمتطلبات العصر.

وإضافةً إلى ما سبق؛ تتطلب تنمية التفكير لدى الطلبة الموهوبين الرؤية والفلسفة التربوية الواضحة لدى من يعملون معهم، وأن مهمة المدرسة هي توفير هذه الرؤية، حيث المدرسة هي حجر الزاوية، والمعلم الموهوب هو من أهم عناصرها، والقادر على رفع سوية التعليم للموهوبين، بما يملك من مؤهلات تؤهله لفهم حاجات الأطفال الموهوبين(كبناء العلاقات الإنسانية القائمة على المودة والاحترام المتبادل، وتعزيز الثقة بالذات، والتزويد بالمعارف اللازمة)، وبما يمتلك من خصائص إبداعية (كالتفهّم والانفتاح على الجديد، والمرونة والذكاء والدافعية والحساسية للمشكلات)، وبما لديه من معارف، ومن مقدرة على تهيئة الفرص لتدريب الموهوبين على مهارات التفكير؛ حيث قراءة كتب عن كيفية القيادة لا يكفي لأن يصبح الفرد سائقاً ماهراً يحصل على رخصة قيادة، أو قراءة كتب عن الجراحة لا يجعل الشخص جراحاً ماهراً.

وبناءً عليه؛ فإنني أرى أنه لابد من رفع كفاءة المعلم بدايةً، ومن ثمّ جميع العاملين في تربية الموهوبين فيما يتعلق بكيفية التدريب لفئة الموهوبين والمتفوقين، وفهم حاجتهم بما يحقق الأهداف المرجوة، حيث لا يمكن أن تتحقق الأهداف دون معلمين مؤهلين تأهيلاً جيداً، ودون تكاتف جهود جميع العاملين على خدمة ورعاية الموهوبين، حيث إن ما يكسبه الأطفال الموهوبون من التعليم اليوم هو الذي سيحدد ما سيتوافر لهم من الفرص للانتفاع بها مستقبلاً في واقع الحياة وبما يفيد مجتمعاتهم في تحقيق النمو الشامل، وإن جوانب القصور في مجال تعليم الموهوبين اليوم سيكون له ثمن باهظ في المستقبل على الصعيد البشري، حيث توجد صلات قوية بين التعليم الجاد واتخاذ القرارات السليمة، وصياغة الحلول للمشكلات.

خلاصة شاملة:

لقد بات من الضروري والحتمي اليوم وفي زمن المعرفة والتسارع التكنولوجي، الاهتمام بتدريب العقول النيّرة لتفتيح طاقاتها؛ لأن اعتماد الأمم يجب أن يكون على عقول أبنائها الأكثر قدرةً وكفاءةً وتميزاً لبناء مجتمع قوي وفعال، وقادر على حماية نفسه بنفسه، وقادر على تحقيق النمو الشامل من جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والفكرية والترفيهية، وقادر على مواجهة التحديات المتلاحقة المحلية والدولية والعالمية وخاصة عند اندلاع الأزمات والكوارث الطبيعية، فالموهوبون هم شباب اليوم، وهم قادة المستقبل، وهم كنز من كنوز الأوطان التي لا تنضب، والاعتناء بهم وتقديم

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 111 11/12/12 12:30:09 PM

الرعاية والاهتمام الكافي لهم هو حق من حقوقهم الإنسانية، وهي مسؤولية وطنية، وجودة تعليمهم هي أساس الازدهار الشخصي والمجتمعي.

وقد اتضح ممّا سبق أنّ الإبداع لابد له من بيئة داعمة ومحفزة، ومن سياقات فكرية راقية لكي ينضج، فبدا أنّ التقصير في إبداع أبنائنا الموهوبين لم يكن مسؤولية أطفالنا الموهوبين أنفسهم، بل مسؤولية مجتمعاتهم وثقافاتها والقائمين على رعايتهم وتدريبهم ودعمهم، وهو الأمر الذي لابد أن يبدأ منذ الطفولة الباكرة؛ من خلال توفير الرعاية الشاملة واللازمة لهم في المدرسة والأسرة والمجتمع عامةً، وتوفير الكفاءات اللازمة لتعليمهم وتدريبهم والتفاعل معهم، والتدريب الفعلي لقدراتهم وإمكاناتهم ومهارتهم في التفكير، وتوفير الوقت الكافي لهم للإبداع، ودعم أفكارهم الإبداعية والاستماع لها، وتقديم الدعم المالي لتطوير مشروعاتهم والمشروعات القائمة على رعايتهم، وإثارة دافعيتهم للابتكار والإنتاج والبحث العلمي بشتى السبل، كل ذلك أملاً في أن نصل إلى اليوم الذي يحصل به أبناؤنا العرب على جوائز نوبل كعلماء في المجالات المختلفة، وأن يسجّل أبناؤنا براءات اختراع تضاهي ما للدول الأجنبية بل وتفوقها، وحتى يكونَ لأبنائنا دور تاريخيّ في ركْب الحضارة السائر بلا توقف أو هوادة، وإسهامٌ في رقي الأمم والشعوب ورفاهها، وفي حل مشكلاتها المستجدة التي تعصف بعالمنا ولا تنتهي.

المراجع

المراجع العربية:

جروان، فتحي عبد الرحمن (2004). الموهبة والتفوق والإبداع، الأردن،عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

طافش، محمود (2004). تعليم التفكير (مفهومه، أساليبه، مهاراته)، الأردن، عمان: جهينة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

كرين، وليام (1996). نظريات النمو (مفاهيم وتطبيقات)، ترجمة: محمد الأنصاري، ومراجعة رجاء أبو علام، الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية (1992).

نوفل، محمد بكر (2009). الإبداع الجاد (مفاهيم وتطبيقات)، الأردن،عمان: ديبونو للطباعة والنشر والتوزيع.

المراجع الأجنبية:

Davis, G., Rimm, S. & Siegle, D. (2010). Education of The Gifted and Talented, (The 6 edition), Prentic-Hall, Inc. New Jersy.

Solso, R. (2001). Cognitive Psychology. Allyn & Bacon Press , U.S.A.

Sternberg, J. (2002). Cognitive Psychology. Wadsworth a divion of Thomson Learning Inc.

UNESCO (1997). Millennium Development Goals (MDG), World International Forum, Dakar. www.unesco.org.

□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ .indd 112 11/12/12 12:30:09 PM